المقياس: سوسيولوجيا الفن

الأستاذ: الدكتورة باحفيظ سنوسية

المستوى: السنة أولى جذع مشترك

القسم: قسم الفنون

الكلية: كلية الأدب العربي والفنون

السنة الجامعية: 2021-2022

المحاضرة: 01

يعتبر النقاد الاجتماعيون أنّ الفنّ والأدب ظاهرتان اجتماعيتان، بحيث يعبّر الكاتب بلغة مجتمعه، كما أنّ الفنّان في مختلف أشكال الفنّ وأنواعه إنّما يعتبر فنّه إعلاء لغايات وأهداف اجتماعية.

والفنّان فرد في مجتمع انساني يحسّ ويحلم ويعبّر كطرف في داخل هذا المجتمع، ولقد كان الفنّ والأدب عبر تاريخ البشرية تعبيرا عن علاقته بمجتمعه.

ومن هذا المنطلق فكّر الباحثون المهتمون بهذا الحقل المعرفي في تأسيس نظرية علمية، هدفها تفسير العلاقة بين الأدب والفنّ والمجتمع سمّيت ب"النظرية السوسيولوجية".

لقد أكّدت مدام دو ستايل في كتابها المعنون "الأدب في علاقته بالمؤسسات الاجتماعية" (1800م)، ارتباط الأدب الوثيق بمجتمعه، حيث اعتبر ذلك الكتاب أوّل محاولة لمجمع الأدب والمجتمع في دراسة واحدة منهجية.

ولقد دأبت "مدام دو ستايل" على دراسة مدى تأثير الدين والعادات والتقاليد في الأدب متأثرة في ذلك بأستاذها

"مونتيسكيو" وكتابه "تاريخ الحقوق"، حيث تكلّم عن روح الأدب وفيه بدأت كلمة "عصري" و"وطني" تنحيان منحى جديدا؛ فأصبح الأدب يعلّل تنوعه عبر الزمان والمكان بمجتمعاته البشرية وخصائصها المميزة[1].

وفي هذا العصر برز مفهوم "روح العصر" و"الروح الوطنية"، وذلك في منتدى "مدام دو ستايل" وأصدقائها الألمان، وقد كان "تين" Taine من أهمّهم، وقد عرف "تين" بمقاربته العلمية للأدب والفن ودراستهما من زوايا (العرق، البيئة، والزمن) وتفاعل هذه العوامل الثلاث هو ما يحدّد هذه الظاهرة.

ويعارض "لانسون" ما ذهب إليه "تين" بحجّة أنّ الفنّ والأدب تتحكم فيهما عملية الإبداع المتصلة بالخيال والعاطفة، ولذلك فلا يمكن لعلم الاجتماع الأدبي أن يحقّق نفس نتائج العلم من حيث الدّقة.

لقد أخضع كارل ماركس الفنّ والأدب لنفس الدّراسة في علم الاقتصاد، وإن لم تكن دراسته صريحة في مجالي الفن والأدب؛ فإنّ هناك من الباحثين في حقل "علم الجمال" من حوّلوا نظرية ماركس الاقتصادية إلى نظرية تحلّل علاقة الفنّ

[1] روبيرت سكاربيت: سوسيولوجيا الأدب، دار منشورات عويدات، بيروت-لبنان، الطبعة الثانية 1983م.

والأدب بالمجتمع، مركزين على الجانب البراغماتي (المنفعي) في هذه العلاقة.

واختصارا، فإنّ مهمّة النّقد الاجتماعي هي مهمّة رصد العلاقة الوثيقة التي لا يمكن إلاّ أن تكون بين الفن والأدب والمجتمع[2].

[2] انظر: نفس المرجع صص 26-34.

المحاضرة: 02

تاريخ المنهج السّوسيولوجي

(مرحلة التّشكّل)

يعود المنهج السوسيولوجي إلى السنوات الأخيرة من القرن 18م؛ فالأدب ينشأ تباعا لمتطلبات الذات التي لا تعدو أن تكون تسجيلا للوعي الجماعي في مرحلة ثانية للإبداع الفني، والفنّ كما الأدب يعتبر علامة دالة على فئة المثقفين، حيث أن فولتير قد رفض كلمة "جمهور" المرادفة لكلمة شعب انطلاقا من أرستقراطية الثقافة آنذاك.

وبقدر ما يكون هذا الحدث اجتماعيا؛ فإنّ مشكلة العلاقات بين الأدب والفنّ والمجتمع لا تطرح بشكل واع على أنّ تطوره منذ القرن السادس عشر (ق16م) (عصر النهضة)، أخذ يتسارع منذ القرن 18م؛ فقد تفرعت المعارف إلى ميادين الاختصاص فمالت الأعمال العلمية والتقنية إلى الابتعاد تدريجيا عن الأدب البحت الذي كانت دائرته ضيقة، حيث مال – أي الأدب - إلى غاية الترفيه والامتاع، وفي الاتجاه الجديد اللاتكسبي أخذ الأدب والفنّ يبحث في ذلك الحين عن إقامة علاقات عضوية جديدة بينه وبين الجماعة (الاهتمام بمضمون

الفن) و(رسالته)، وهذا ما يسمى ب(الأدب الملتزم) أو (الفن الملتزم).

ومن جهة أخرى أخذ التقدم الثقافي والتقني يؤكد على مفهوم لاتكسبية الأدب قويّ في الجماعة المستهلكة الحاجة إليه، وضاعف من طرق التبادل فيه، وبفضل فنّ الطباعة وتطور صناعة الكتب وتراجع الأمية، ثم من بعد بفضل تطبيق الوسائل السمعية – البصرية (السينما)؛ فإنّ ما كان امتيازا أرستقراطيا لطبقة المثقفين في عصر الإقطاع أصبح همّا ثقافيا عند النخبة البرجوازية (الرأسمالية الجديدة) المنفتحة نسبيا، ثم في العهد الحديث -(النزعة الرومانسية ضد الكلاسيكية في القرن التاسع عشر)- غدا وسيلة تنمية ثقافية للجماهير والذي تنامى خاصة مع مجيئ تيار ثورة نابليون بونابرت الجمهورية في فرنسا وفي أوربا.

فهذا الاختصاص من جهة وهذا الانتشار من جهة ثانية بلغا حدا حرجا حوالي سنة 1800م، وإذ ذاك بدأ الأدب يعي بعده الاجتماعي، ويعتبر كتاب مدام دوستال المنشور في هذا التاريخ بعنوان "الأدب في علاقاته بالمؤسسات الاجتماعية"، أوّل محاولة في فرنسا لجمع مفهومي الأدب والمجتمع في دراسة واحدة منهجية، والتي كانت سببا في فهم تنامي تيار الوعي الفني الذي شكّل حالة الوعي الاجتماعي.

ولقد توضح موقف مدام دوستال من خلال قولها: "لقد عزمت على أن أنظر في مدى تأثير الدين والعادات والقوانين في الأدب ومدى تأثير الأدب في الدين والعادات والقوانين"[3]. وهي بذلك تتفق وتتلاقى مع "مونتيسكيو" من حيث تطبيق نفس الأساليب التي اعتمدها هذا الأخير على الأدب من حيث إدخال مفهومي "عصري" و"وطني" اللذان بدآ يطفوان وينتشران في ذلك الزمن الذي تنامت فيه نزعة ما يعرف ب(روح العصر) Zeitgeist ونزعة (الروح الوطنية) Voltsgeist، إذ كان ضروريا تعليل الأدب من زاوية تنوّعه زمانيا ومكانيا بحسب تنوع المجتمعات البشرية واختلاف مميزاتها وخصائصها.

وهي نفسها المفاهيم التي وردت في مذهب "تين" والمعروفة ب: (العرق، البيئة، والزمن) الذي كان متأثرا بمعطيات ونتائج العلوم الطبيعية وبنظرية داروين التطورية، إلا أنّه كان بحاجة لاستيعاب مفهوم "العلم الإنساني"، وهذا ما كان سبب اعتراض جورج لانسون George Lanson عليه بعد نصف قرن بقوله: "ليس ما يجمع بين تحليل العبقرية الشعرية وتحليل السكر سوى الاسم"[4]. وذلك بسبب قصور في مخطط "تين" حول العرق والبيئة والزمن، إذ لا يستطيع أن يشمل كافة

[3] Mme De Staël : De la littérature, Discours préliminaire.

[4] G. Lanson : Méthodes de l'histoire littéraire, Etudes Françaises, 1er Cahier, Janvier 1925, p. 23.

مظاهر الحقيقة التي هي في غاية التعقيد، وذلك لأن مناهجه – أي تين- لا تطابق خاصية الواقع الأدبي والفني.

ويرى جورج لانسون أن ما كان يقدمه تين من طرائف بصفة عشوائية من طرائق العلوم الطبيعية لا تعدو أن تكون إلا وسائل تقليدية من التاريخ والنقد الأدبي يوظفها لتحليل المادة الأدبية أو الفنية التي يدرسها، وهو ما أطلق عليه لانسون "التحليل السيري وشرح المتون". إلا أنّ وجاهة نظرية تين ما تزال قائمة بسبب أنّ النّقد لا يستطيع الاستغناء عن السياقات الخارجية (التاريخية، الجتماعية...الخ) في تفسير الظاهرة الأدبية وتحليل العمل الفنّي اللذان هما مرهونان بمعطيات المجتمع والتاريخ والجغرافيا.

المحاضرة: 03

النظرية الماركسية ودورها في انبثاق النظريات الجمالية

في سوسيولوجيا الفنّ

ظهرت في القرن التاسع عشر (ق 19م) نظرية كارل ماركس في علم الاقتصاد كعلم إنساني أكثر فعالية من نظرية "تين"، حيث فسّر تاريخ المجتمع بواسطة النظرية المادية وأصدر كتابا مع صديقه أنجلز حول الأدب والفنّ محاولان تفسير العملية الإبداعية وتأثيرها على المجتمع تفسيرا ماديا وفق تفسير علم الاقتصاد، غير أنّ الكتاب قد خيب آمال معاصريه في إمكانية الأخذ به لتفسير الكثير من القضايا الأدبية والفنية، وعلى الرغم من ذلك فقد ظل هذا الكتاب مرجعا أساسيا لمن عملوا بعده على تطوير هذه النظرية في القرن العشرين.

حيث بدأت تتكون نظرية ماركسية حقيقية حول الأدب والفنّ مع بليخانوف، هذا الأخير الذي اعتبر الفنّ والأدب اجتماعيان

في الأساس، وهكذا أصبح الاهتمام يركز على الفعالية السياسية التي تأتي بها الأعمال الأدبية، وذلك بإبراز دور الأدب والفنّ في تشكيل الوعي الطبقي لدى الفئات الشعبية في صراعها مع الطبقة البورجوازية.

وهذا هو الحيز الذي اشتغل عليه ايدانوف عام 1956، حيث أظهر وجوب النظر إلى الأدب والفن في علاقتهما مع حياة المجتمع وذلك في إطار خلفية العناصر التاريخية والاجتماعية التي تؤثر في الفنّان أو المبدع، وهو يرتكز في ذلك على المنهج الماركسي اللينيني في إدراك الحقيقة وتحليلها ويستبعد وجهة النظر الذاتية والاعتباطية التي تعتبر الإبداع الفني مستقلا ومنعزلا -(نظرية كانط)-؛ فالأدب ظاهرة اجتماعية والفن كذلك؛ فهو يعرف الفن على أنّه الإدراك الحسيّ للحقيقة عبر الصورة الخلاّقة، وخلاصة هذا المنهج والموقف منه هو أنّ مبدأ المنهج التاريخي هو أساس البحث الأدبي عند السوفيات الذي يعتمد كمعيار أولي لأي عمل فنّي درجة إخلاصه في عرض الحقيقة بمختلف عقدها.

وجاء الهنغاري جورج لوكاتش وتلميذه الفرنسي لوسيان غولدمان معتمدان على النهج الماركسي بطريقة متأثرة بالماركسية وناقدة لها في نفس الوقت؛ فهي طريقة مشكّلة للوعي الجمالي بدرجة كبيرة؛ فمن بين المآخذ التي سجلها كل

من لوكاتش وغولدمان على المنهج السّوسيولوجي السّوفياتي انتقاده للمدرسة الشكلية، هذه المدرسة القوية لكونها تطبق علم الجمال على أشكال الفنون والآداب وأساليبها وهي في الحقيقة ليست سوى وجها لحركة واسعة تنطلق جذورها من ألمانيا وفيها تتحدّد مؤثرات الفلسفة الهيغلية الجديدة "النيو هيغلية".

إنّ علم الأدب هذا كان منذ نهاية القرن التاسع عشر (ق 19م) أولى العقبات التي تعترض ظهور سوسيولوجية أدبية حقيقية؛ فالاتجاهات السوسيولوجية توضحت خلال نصف القرن 19م على شكل أفكار رئيسية بدلا من مجموعة مناهج مترابطة، وقد التقت أحيانا والاتجاهات الشكلية كسوسيولوجيا الذوق مع تشوكينغ، ودراسة اللغة باعتبارها عنصرا اجتماعيا في الأدب مع ويلك، ومما لا شك فيه أنّ الأدب المقارن آخر وليد العلوم الأدبية هو الذي ابتعث العدد الأكبر من المبادرات المهمة في هذا المجال.